(٣) مقومات الجدل مع الواقع

ومع التسليم بصحة قضية تواجد التراث والصدور عنه كضرورة فنية يظل الواقع هنا فارضا نفسه بصورة قابلة للجدل والمناقشة باعتباره ضرورة أخرى توازى الأولى ، وتتفاعل معها ، وتدعمها ، وتضيف إليها أبعادا جديدة متميزة ، وبذلك يجب أن يرفع الجور الذى أصاب الواقع إهمالا أو إغفالا فى بعض النظريات النقدية المتشبثة بالموروث ، ذلك أن الأمور تبدو فى غير صالح العمل الفنى ، خاصة إذا ماصدرت من منطق النظرة الجزئية أو الأحادية ، لما تتسم به من قصور لا تستساغ نتائجه إزاء العمل أو صاحبه أو بيئته ، فإذا كانت النظريات القديمة قد اتخذت من الموضوع أساساً للتقليد فى الفن ، فإنها قد سلبت الواقع أهم مميزاته وفعالياته ، ذلك أن أصحابها لم يشغلوا بطبيعة الجدل ، أو حدود التفاعل الإيجابى الذى يمكن – بل يتحتم – أن يحدث بين الفنان وموضوعه ، تأثرا به وتأثيرا فيه ، ابتداء فى ذلك من رحلة اختياره لإحدى شرائح واقعه ، إلى وسيلة المعالجة الفنية التى يستعين بها ، إلى مدى استيعاب الموقف لرؤيته الفنية ، ليخرج من ذلك كله إلى جمهوره مظفراً ، بما احتوته صنعته من تحويل التجربة الجزئية فى حدودها الفردية الضيقة إلى تجربة إنسانية عامة تكون أكثر شمولا ورحابة وعمقا ، وأقدر على التأثير فى جمهور المتلقين .

ومعنى هذا أن الحديث حول الواقع ضرورة لا يتم إلا من خلال الاعتبارات الأساسية التى تعتد بمكانة الذات المبدعة ، وتحرص على احتواء دورها ، لا في مجرد رصد أبعاد الواقع نفسه فحسب ، بل حتى فى محاولة إعادة تشكيله وتجديده والإضافة إليه ، خاصة إذا وضعت في الاعتبار – وهذا مهم للغاية – من واقع التاريخ ما نهضت به الأعمال الفنية التى بدت بمثابة إرهاصات مبكرة لحركات ثورية كبري ربما من قبيل التنبؤ بها ، لكنه تنبؤ يكشف عن ممارسات واقعية يعيشها الفنان حين يصطدم بجوهر واقعه ويتأمل الطبائع النوعية لمشكلاته ، ويحاول أن يتعمقها ، باعتبار طبيعة مادة الخبرة الجمالية على حد تعبير « جون ديوى » حين رآها بشرية فى علاقاتها بالطبيعة التى هى جزء منها ، فالخبرة الجمالية مظهر لحياة الحضارة ، وسجل لها ، وإحياء لذكراها ، وهى وسيلة لترقية مسارها ، كما أنها – إلى جانب ذلك – بمثابة الحكم النهائي على صفحة تلك الحضارة ، ولئن كانت هذه الخبرة نتاجا يستحدثه الأفراد ويتمتعون به ، إلا أن هؤلاء الأفراد أنفسهم ليسوا على ماهم عليه إلا بسبب الثقافات أو